الفصل الخامس

الشـــيعة

لما جاء القرن الرابع الهجرى كان حزب الخوارج قد فقد ما كان له من شأن ، بعد أن كان أقدم حزب يناوئ الخلافة الرسمية ؛ وأصبح الخوارج مفرّقين فى وسط المملكة الإسلامية ، يؤلفون جماعات صغيرة لها مذهبها الخاص ؛ وكان لهم خروج وحروب بديار ربيعة وعمان وغيرها فى أوائل القرن الرابع[1] ، لم تكن لهم قوة وصَوْلة إلا فى الأطراف : فى بلاد سجستان ونواحى هراة[2] . وكذلك فى الغرب ، حيث دخل فيهم البربر المقيمون على شاطئ مضيق جبل طارق[3] . وقد واصل الشيعةُ المهدية ، القرامطة والفاطميون ، ما كان قد بدأه الخوارج من مكافحة الخلافة ؛ وكان هذا علامة من العلامات التى تنذر بنهاية الأصول الإسلامية الأولى ، ذلك أنه من أكبر ما تمتاز به الحركة الفكرية فى القرن الرابع الهجرى ظهور مذهب الشيعة يحمل بين ثناياه الكثير من الأفكار الشرقية القديمة ، ويجعلها مكان بعض الأفكار الإسلامية .

ولقد أبانت لنا مباحث ڤلهاوزن بصورة أدنى إلى الصواب أن مذهبَ الشيعة

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٣٢٠ .

(٢) مقدسى ص ٣٢٣ .

(٣) Goldziher, ZDMG, 41, S. 31 ff. ، وكانوا إباضية نكارية ؛ أما فى المشرق فكانوا على مذهب الصفرية المتطرفين . ويقول ابن حزم (الفصل ج ٤ ص ١٩٠) : إن فرق الخوارج كلها قد بادت ولم يبق على عهده إلا الإباضية والصفرية . وفى أيامنا هذه لم يبق من الخوارج جماعة مهمة إلا عرب عمان ومن تأثر بهم فى إفريقية الشمالية .

ليس — كما كان يعتقد البعض — ردّ فعل من جانب الروح الأيرانية يخالف الإسلام[١] . ومما يؤيد أبحاث فلهاوزن التوزيعُ الجغرافي للشيعة في القرن الرابع؛ وقد ألمع الخوارزمي في أواخر القرن الرابع إلى أن العراق هو الموطن الأول للتشيع[٢] . وكانت الكوفة ، وبها قبر عليّ (رضي الله عنه) أكبر مركز للشيعة حتى ذلك العهد ، وكان يقال : « من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ (بالكوفة) وليقل : رحم الله عثمانَ بنَ عفانَ »[٣] . وفي غضون القرن الرابع امتدّ مذهب الشيعة إلى البصرة ، وهي المنافس القديم للكوفة والتي كان يقال عنها في القرن الثالث : أما البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من شيعتنا إلا القليل ، « وأما الكوفة وسوادها فقد غلب عليها عليّ وشيعته »[٤] ؛ وفي البصرة اضطر أبو بكر الصولي (المتوفى عام ٣٣٠ هـ — ٩٤٢ م) أن يستتر حتى مات لأنه روى خبراً في عليّ (رضي الله عنه) ، فطلبته الخاصة والعامة لتقتله[٥] . وفي القرن الخامس الهجري كان في البصرة ما لا يقلّ عن ثلاثة عشر مكاناً تتصل بذكرى عليّ[٦] ، وكان يقدسها الشيعة . بل كان يوجد في المسجد الكبير في ذلك الوقت أثرٌ من آثار عليّ يُعرض للناس ، وهو قطعة من الخشب طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها خمسة أشبار وسمكها أربعة أصابع .

---

(١) راجع كتاب Julius Wellhausen, Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam, Berlin, 1901, S. 91.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي طبعة القسطنطينية عام ١٢٩٧ ص ٤٩ .

(٣) تاريخ بغداد مخطوط رقم ٢١٢٨ بمكتبة باريس الأهلية ص ١٤ ب ، ويقول المقدسي (ص ١٢٦) : إن أهل الكوفة شيعة إلا الكناسة فإنها سنية .

(٤) ثلاث رسائل لأبي عثمان الجاحظ طبعة فان فلوتن ليدن ١٩٠٣ ص ٩ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ١٥٠ .

(٦) ناصر خسرو ص ٨٧ .

يقال إن علياً جاء بها من الهند[١]. وكانت الشام منذ أول الأمر تربة غير صالحة لدعوة العلويين ؛ ويحكى أن أبا عبد الرحمن النسائى (٢١٥ — ٣٠٣ هـ) دخل دمشق ، وكان يتشيع ، فسئل عن معاوية وما رُوى من فضائله فقال : أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل ؟ وفى رواية أنه قال : ما أعرف له فضيلة إلا « لا أشبع الله له بطناً » ، فما زالوا يدفعونه حتى أخرجوه من المسجد ، ودأسوه ثم داسوه ، ثم حُمل إلى الرملة ، فمات وهو مشغول بسبب ذلك الدَّوْس[٢] وكان أهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعة[٣] ، ولا أدرى كيف كان ذلك . ورغم قيام الدولة الفاطمية نلاحظ أن حزب الشيعة لم يتقدم إلا قليلا ؛ وإذا كان ناصر خسرو قد وجد أهل طرابلس فى عام ٤٢٨ هـ — ١٠٣٧ م شيعة[٤] ، فقد جاء ذلك من أن بنى عمّار ، وهم إحدى الأسرات الصغيرة الكثيرة على الأطراف ، كانوا هناك على مذهب الشيعة ؛ ويظهر أنهم عملوا بمقتضى القاعدة السيئة التى تجعل للأمير الحق فى فرض المذهب الذى يريده[٥] ، وهى قاعدة لم يُنَادِ بها أحدٌ فى الإسلام فضلاً عن أن تُطبَّق تطبيقاً شرعيا . وكانت جزيرة العرب شيعة كلها عدا المدن الكبرى مثل مكة وتهامة وصنعاء وقُرح ، وكان للشيعة غلبةٌ فى بعض المدن أيضا مثل عمان وهجر وصعدة[٦] . وفى بلاد

---

(١) نفس المصدر .

(٢) الوفيات لابن خلكان طبعة فستنفلد ١٨٣٥ ج ١ ص ٣٧ ، انظر أيضاً طبقات السبكى ج ٢ ص ٨٤ .

(٣) المقدسى ص ١٧٩ .

(٤) ناصر خسرو ص ٤٢ .

(٥) cujus regio, ejus religio ، وهذا ما تم الاتفاق عليه بين الأمراء الألمان والإمبراطور فى آخر القرن السادس عشر ، وهو أن يكون لكل أمير الحق فى أن يفرض على أهل إمارته المذهب الذى يراه . [المترجم]

(٦) المقدسى ص ٩٦ .

خوزستان التي في العراق كان نصف الأهواز ، وهي القصبة ، على مذهب الشيعة[١] ؛ أما في فارس فكان الشيعة كثيرين على السواحل التي تتصل اتصالا وثيقاً بالعراق وخصوصاً بالعرب للتشيعهن[٢] ؛ أما في جميع المشرق فكانت الغلبة لأهل السنة إلا أهل قُمّ فإنهم كانوا «شيعة غالية ، قد تركوا الجماعات ، وعطلوا الجامع إلى أن ألزمهم ركن الدولة عمارته ولزومه»[٣] . والسبب في تفرّد أهل قمّ بذلك أن هذه المدينة قد احتلها من قبل أصحاب ابن الأشعث ، وكان رئيسهم قد أدّب ابنه في الكوفة ؛ وكان غلوّ أهل قمّ موضع كثير من النوادر « ... ومن ظريف ما يحكى أنه وُلّي عليهم والٍ ، وكان سُنّيا متشدّداً ، فبلغه عنهم أنهم لبغضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم مَن اسمه أبو بكر قط ولا عمر ، فجمعهم يوما وقال لرؤسائهم : بلغني أنكم تبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنكم لبغضكم إياهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم ، وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ، ويثبت عندي أنه اسمه ، لأضربنّ بكم ولأصلبن ؛ فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم ، واجتهدوا ، فلم يروا إلا رجلاً صعلوكاً حافياً عارياً أحوَل أقبح خَلْق الله منظراً ، اسمه أبو بكر ، لأن أباه كان غريبا استوطنها فسمّاه بذلك فجاءوا به ، فشتمهم وقال : جئتموني بأقبح خلق الله تتفادرون عليّ ! وأمر بصفعهم فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير اصنع ما شئت ، فإن هواه

---

(٣) نفس المصدر ص ٤١٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٤٣٩ .

(٥) المقدسي ص ٣٩٥ ، وقد تمثل أحد الشعراء بذكر نساء قمّ العجيبات :

فكأنها شيعيّة قمّيّة وكأن سيدنا الوزير إمامي

(بليبة الدهر ج ٤ ص ١٣٠) ، وكان للشيعة إلى جانب ذلك غلبة في مدينة الرقّة أحدى المدن النصرى بخوزستان (المقدسي ص ٣٢٣) ؛ ولقد كان عند رجل حية وهيبا له أحد كبار

قُمّ لا يجيء منه مَن اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا ؛ فقلبه الضحك وعفا عنهم ... »[١].

. وكان فى قمّ فرقةٌ من الغُلاة وهم القُرابية ، ومذهبهم أن المال كله للبنت ، فلما ولى عليهم قاضٍ حكم للبنت بالنصف هدّدوه بالقتل ؛ « وهم قوم من شرار الروافض يذهبون إلى هذه المقالة لأجل فاطمة رضى الله عنها »[٢] . وفى عام ٢٠١ هـ — ٨١٦ م دفنت فى قُمّ السيدة فاطمة ابنة الإمام الثامن ، الرضا ، لأن قمّ كانت فى ذلك الوقت أحب مكان يدفن الفرس فيه موتاهم ، بعد مشهد . أما أصفهان فقد كان فى أهلها بَلَه وغُلوّ فى معاوية على عهد المقدسى ؛ ويحكى المقدسى أنه وُصف له رجلٌ بالزهد والتعبُّد ، فقصده ليسأله ، فرآه يقول إن معاوية نبيٌّ مُرْسَل ، فلما أنكر المقدسى عليه ذلك أصبح يشنّع عليه ، ولولا أن القافلة أدركته لبطشوا به[٣]. وكانت أصفهان تخالف قُمّ كل المخالفة ؛ ففى عام ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م وقعت بها فتنة كبيرة نشأت عن اختلاف المذاهب ؛ وكان سبب ذلك أنه قيل عن رجل قُمّى إنه سبّ بعض الصحابة ، فثار أهل أصفهان ، واجتمع خلق لا يحصون كثرة ، ووقع بينهم قتلى ، ونهب أهل أصفهان أموال التجار من أهل قمّ[٤] . وفى أواخر القرن الرابع الهجرى نجد المقدسى يقول إن خراب نيسابور واضطرابها وما نزل بأهلها من بلاء ، وكذلك ما نزل بقهستان حتى صارت مَأْكَلَةَ القُصَص ونُجْمَةَ الأكدار ، كل ذلك لفشوّ مقالة الشيعة فيهما . ويحكى المقدسى عن صاحب له رجع من هراة ذكر أنه سمع فى السوق صبيا

---

(١) كتاب معجم البلدان لياقوت الرومى طبع ليبزج سنة ١٨٦٩ م ج ٤ ص ١٧٦ .

(٢) طبقات السبكى ج ٢ ص ١٩٤ .

(٣) المقدسى ص ٣٦٩ .

يُنشِد : أن محمداً وعليًا لعنا تيما (منها أبو بكر) وعديًا (منها عمر)[١] ، وفى ذلك العصر لم يكن قد تم لمذهب الشيعة افتتاح البلاد التى يملكها اليوم ، ولكنه كان سائراً فى أحسن طريق يوصله إلى ذلك ؛ بل كان الاضطهاد مما يساعد هذا المذهب على الانتشار .

أما من حيث العقيدة والمذهب فإن الشيعة هم وَرَثَة المعتزلة ؛ ولا بد أن أن تكون قلة اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة مما لاءم أغراض الشيعة . ولم يكن للشيعة فى القرن الرابع مذهبٌ كلامى خاص بهم ؛ فنجد مثلا أن عضد الدولة ، وهو من الأمراء المتشيعين ، يعمل على حسب مذهب المعتزلة[٢] . ولم يكن هناك مذهب شيعى إلا للفاطميين ؛ ويصرح المقدسى بأنهم يوافقون المعتزلة فى أكثر الأصول[٣] . وعلى العكس من هذا نجد الشيعة الزيدية يرتقون بسند مذهب المعتزلة حتى ينتهىَ إلى على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، ويقولون إن واصلاً أخذ عن محمد بن على بن أبى طالب ، وإن محمداً أخذ عن أبيه[٤] . « والزيدية يوافقون المعتزلة فى أصولهم كلها إلا فى مسألة الإمامة »[٥] . ويدل على العلاقة الوثيقة بين المعتزلة والشيعة أن الخليفة القادر جمع بينهما حينما نهى فى عام ٤٠٨ هـ — ١٠١٧ م عن الكلام والمناظرة فى الاعتزال والرفض (أى مذهب الشيعة) والمقالات المخالفة للإسلام[٦] . ثم إن الطريقة التى سار عليها ابن بابويه القمى ،

---

(١) رسائل الهمذانى ص ٤٢٤ — ٤٢٥ ، وابن حوقل ص ٢٦٨ .

(٢) مقدسى ٤٣٩ .

(٣) نفس المصدر ٢٣٨ .

(٤) ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل لأحمد بن يحيى المرتضى طبعة أرنولد بحيدر آباد ١٣١٦ هـ ص ٥ .

(٥) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٥٢ .

(٦) المنتظم ص ١٦٥ ب

أكبر علماء الشيعة فى القرن الرابع الهجرى ، فى كتابه المسمى كتاب العلل تذكرنا بطريقة علماء المعتزلة الذين كانوا يبحثون عن علل كل شىء . وكان فى مذهب الشيعة ، كما كان فى مذهب المعتزلة ، مكانٌ لكل ألوان الزندقة ؛ فنجد ابن معاوية منذ القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، يجمع حوله الزنادقة ؛ وقتل أحد هؤلاء لأنه أنكر البعث ، وكان يقول إن الناس تفنى كالنباتات[١] . وفى عام ٣٤١ هـ — ٩٥٢ م ظفر الوزير المهلبى بقوم من التناسُخِيّة ، فيهم شاب يزعم أن روح علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) انتقلت إليه ؛ وفيهم امرأة تزعم أن روح فاطمة (رضى الله عنها) انتقلت إليها ؛ وفيهم آخر يزعم أنه جبريل ؛ فَضَرَبُوا ، فالتجأوا لأهل البيت ، فأمر معزّ الدولة بإطلاقهم لتشيُّعٍ كان فيه[٢] . ومثل هذه المقالات ، وخصوصاً القول بالرجعة وبالتناسخ ، يوجد فى مذاهب الغنوسطيين المسيحيين[٣] . وكثيراً ما نجد فى العراق حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م من يقول إن اللاهوتية اجتمعت فى على (رضى الله عنه) ، كما اجتمعت فى عيسى عليه السلام من قبل (انظر الفصل الخاص بالدين) . وكان أحد خطباء الشيعة ببغداد فى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م يدعو فى خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فيقول : وعلى أخيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب مُكلِّم الجحجمة ، ومحيى الأموات ، البشرىّ الإلهى ، مُكلِّم فتية أصحاب الكهف ، وغير ذلك من الغلو[٤] ؛ ومن هذا ما يحكى عن المسيح

---

(١) Wellhausen, Oppositionsparteien, S. 99.

(٢) أبو المحاسن ، طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٣٣ .

(٣) ملبس من السرورى أن نردّ الآراء المتعلقة بظهور المسيح إلى اليهود بجزيرة العرب ، وهم الذين يعتبرون آباء هذه الفلسفة (انظر مقالة Friedländer, ZA,23,S.24)

(٤) المنتظم ص ١٧٨ ب .

عليه السلام ؛ وقد ظلت هذه الصفات عند المسلمين مما اختص به المسيح عليه السلام مدة طويلة ، ومرى كثير مما كان يقال لإثارة العواطف فى يوم جمعة الآلام عند المسيحيين إلى يوم عاشوراء . يقول القمى (المتوفى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م : « إذا نَظَرْتِ السماء حمراء ، كأنها دمٌ عبيطٌ ، ورأيتِ الشمس على الحيطان ، كأنها الملاحف المُعَصْفَرَة ، فاعلمى أن سيد الشهداء الحسين قد قتل »[١] . وكذلك ذهب الشيعة فى السيدة فاطمة (رضى الله عنها) إلى ما يشبه صفات السيدة مريم عليها السلام ، فهى قد سُمِّيت البتول مثل مريم ؛ ويَرْوى الشيعةُ عن النبى عليه السلام أنه أجابَ من سأله : ما البتول ؟ فقال : البتول التى لم تَرَ حُمْرَةً قط ، أى لم تَحِضْ ، فإن الحيض مكروهة فى بنات الأنبياء[٢] . وكذلك زعم الشيعة أن الحسين (رضى الله عنه) لم يُقْتَلْ ، وأنه شُبِّه للناس ، كعيسى بن مريم عليه السلام[٣] ؛ وربما تكون هناك علاقة بين لباس الشيعة و بين اللباس الأبيض الذى اتخذته الفرق الغنوسطية . وكان الشيعة أيضاً فى أول الأمر يلبسون البياض ؛ و يقول الشاعر ابن سكرة[٤] :

إن عيـــد أهل قُمّ وقاشان والكرج
يتـــلاقى بياضهم بقلوبٍ من السبج

وقال بعض رؤساء الشيعة الخالقين لما عليه جمهورهم ، وقد لبس سواداً :

---

(١) كتاب الملل لابن بابويه القمى مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ١٠٠ ا ، وكان القمى يقول : عند موت الحسين تقطر السماء دما .

(٢) كتاب الملل ص ٧٧ ب .

(٣) كتاب الملل ص ٩٩ ب .

(٤) بتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠٦ .

بيِّض قلبك ، والبَسْ ما شئت[١] . وكانت أعلام القرامطة بيضاء ، وكذلك كانت ملابس خلفاء الفاطميين وخطبائهم[٢] . أما اللون الأخضر الذى يتميز به العلويون اليوم فإن أول من أمر باتخاذه سلطان مصر شعبان بن حسين (المتوفى عام ٧٧٨ هـ — ١٣٧٦ م)[٣] .

وربما يكون الشيء الوحيد الجديد فى مذهب الشيعة فى هذا العصر أنهم يردّون كل الأخبار والآثار إلى علىّ وأهل بيته . وقد صادف هذا الصنيع أشد استنكار من علماء أهل السنّة[٤] ؛ وفى سنة ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م روى رجلٌ حديثاً وسنده بالسبط والصادق حتى انتهى إلى على بن أبى طالب ، ونُقل ذلك إلى مجلس فيه ابن راهويه الفقيه ، وكان متّهماً بالنصب ، فقال : ما هذا الإسناد ؟[٥] . وكان وضْعُ الأخبار من جانب الشيعة وخصومهم فى هذا الباب من الأمور التى جروا عليها من قديم ، وكانوا لا يجدون فى ذلك حرجاً . ويُذكر أن ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية كان يتشيّع ويقدّم عليا على عثمان ، وكان يدخل فى كتابه أشعاراً للشيعة . ويُروى أيضاً أن عوانة بن الحكم (المتوفى عام

---

(١) كتاب الملل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ١٣٥ ا .

(٢) يشير المؤلف هنا إلى صفحات من كتاب الملل ومن كتاب الأوائل والأواخر لعل هذا الكتاب ثلاث نسخ بمكتبة برلين) ، ولم أجد فى هذه الصفحات ما يقابل كلامه [المترجم] . وقد دخل المأمون بغداد من خراسان عام ٢٠٤ هـ ، فكان لباسه هو وأصحابه وأعلامهم الخضرة (كتاب بغداد لليفور طبعة كلر Keller ص ٢) ، وكان ينصب على أعلى النوبهار يلتح الرماح عليها شقاق الحرير الخضر ، (مروج الذهب ج ٤ ص ٤٨) . وربما كان هذا اللون شعار خراسان .

(٣) ابن الجوزىّ مخطوط برلين ص ١٣٠ ، ولكن لا مقابل لذلك فى هذه الصفحة فى مخطوط رقم ٩٤٣٦ بمكتبة برلين . [المترجم]

(٤) انظر مثلا ناصر خسرو ص ٤٨ ، وأبا المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٥) كتاب الوزراء ص ١٧٠ — ١٧١ .

١٤٧ هـ — ٧٦٤ م) كان يضع أخباراً لبني أمية ، وعامة أخبار الدائني مأخوذة عنه[١] ؛ وإذا كان أحد الشعراء حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م يعزو أساطير الشيعة إلى قلة معرفتهم بالأخبار[٢] ، فإن المقدسي يحكي لنا أنه كان يوما بجامع واسط ، وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس ، فدنا منه ، فإذا هو يروى حديثاً بسنده عن النبي عليه السلام : إن الله يُدْنِي معاوية يوم القيامة ، فيُجْلِسه إلى جنبه ، ويخلّفه [؟] بيده ، ثم يجلوه على الناس كالعروس ، فقال له المقدسي : بماذا ؟ قال : بمحاربته علياً ، فقال له المقدسي : كذبت يا ضالّ ! فقال : حدوا هذا الرافضي ؛ فأقبل الناس عليه ، فعرفه بعض الكتبة ودفعهم عنه[٣] . وكذلك حكى المقدسي أنه كاد يُبطش به لأنه أنكر على رجل من عُبّاد أصفهان قوله إن معاوية نبيٌّ مرسل[٤] . على أن عليا لم يصبح موضع النزاع ، ومضى الوقت الذي نجد فيه خليفة عباسياً مثل المتوكل (٢٢٣ - ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ — ٨٦١ م) شديد البغض لعليّ ولأهل بيته ، حتى كان من جملة ندمائه رجل يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدة ، ويكشف رأسه وهو أصلع ، ويرقص ، ويقول : قد أقبل

---

(١) الإرشاد (معجم الأدباء) ج ٦ ص ٩٤ ، ٤٠٠ و Goldziher : "Kultur der Gegenwart,, (?)

(٢) هو الشاعر الملقب بالخبز أرزى حيث يقول :

من غابت الأخبار عنه ، ودينه دين الإمامة ، قال بالأوهام

انظر مروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٤ .

(٣) المقدسي ص ١٢٦ ، وكان من أمر هذا النزاع في أمر علي ومعاوية أن صار له شأن ديني ؛ ويحكي المسعودي (المروج ج ٥ ص ١٤) أن قبر معاوية بباب الصغير بدمشق ، وهو يُزار إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وعليه بيت مسبل يفتح كل يوم اثنين وخميس » .

(٤) المقدسي ص ٣٩٩ ؛ والمنتظم ص ٦٠ ب

الأصلع البطين أمير المؤمنين ، يعني عليًا رضي الله عنه ، والمتوكل يشرب ويضحك[١] . وكان أهل السنة في الجملة يذكرون عليا بالإجلال ، ولم يكونوا ممن أعداء له[٢] . فالهمذاني (المتوفى عام ٣٩٨ هـ — ١٠٠٨ م) مثلا قد شنّع على الشيعة ، ورد على طعن الخوارزمي في عمر[٣] ؛ وقد ألف مرثية للحسين ، وتحدّث عن مقتله وصُنع بني أمية بأبناء النبي[٤] ؛ وكان أشد ما يؤلم نفوس أهل السنة ما أولع به الشيعة من سبّ الصحابة الأولين ، وفي سنة ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م توفي ببغداد أحد علماء أهل السنة الأكابر ، وكان ديّنا حسن الاعتقاد ، واجتاز يوما بالكرخ ، فسمع سبّ بعض الصحابة ، فجعل على نفسه ألا يمشي في الكرخ ؛ وكان يسكن باب الشام ، فلم يعبر قنطرة الصراة حتى مات[٥] ؛ وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعيا لمذهبه لم تذكر اسم عليّ ، بل يُجعل سببُ العقوبة أنه شتم أبا بكر وعمر[٦] ، وفي عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م كتب عامة الشيعة بأمر معز الدولة على المساجد ما هذه صورته : لعن الله معاوية بن أبي سفيان ، ولعن من غَصَبَ فاطمةَ فدكاً ، ومن منع الحسن أن يُدفَنَ عند قبر جَدّه ، ومن نفى أبا ذرّ . . فلما جاء الصباحَ محاه بعض الناس ؛ فأشار الوزير المهلبي على معز الدولة أن يكتب موضع المحو : لعن الله الظالمين لآل رسول الله ، ولا يذكر أحداً إلا معاوية ؛ ففعل ذلك[٧] .

---

(١) أبو الفدا تحت عام ٢٣٦ (ج ٢ ص ١٨٨) .

(٢) W. Sarasin : Das Bild Alis bei den Historikern der Sunnah.

(٣) الديوان : باريس ص ٩٠ وما يليها .

(٤) رسائل الهمذاني طبعة بيروت ١٨٩٠ ص ٥٨ وما يليها .

(٥) المنتظم ص ١٥٨ ا .

(٦) المنتظم مثلا ص ٢٩ ب .

(٧) أبو الفدا ج ٢ ص ٤٢٨ تحت عام ٣٥١ هـ .

وقد لجأ كثير من العلويين إلى مصر التي لم تكن تربطها بعرش الخلافة ببغداد رابطةُ الطاعة التامة . وفي سنة ٢٣٦ هـ — ٨٥٠ م كان المتوكل قد حبس الطالبيين في سُرّ من رأى[١] ، وورد كتابه إلى والي مصر بإخراج الأشراف العلويين وإعطاء الرجل منهم ثلاثين ديناراً والمرأة خمسة عشر ديناراً ؛ فقدموا العراق ، ثم أُمروا بالخروج إلى المدينة[٢] ؛ ولكن كثيراً من العلويين استطاعوا أن يفلتوا من هذا النظام ، وسرعان ما ثاروا وبايعوا واحداً منهم ، فورد كتاب المنتصر إلى والي مصر بألا يُقبِّل علويٌّ ضيعةً ، ولا يركب فرساً ، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها ، وأن يُمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين أحد الطالبيين وبين أحد من سائر الناس خصومة فلْيُقْبَلْ قول خصم الطالبي فيه ، ولا يطالب ذلك الخصم ببيِّنة[٣] . فلا عجب إذن أن نرى مصر تشهد حوالي عام ٢٥٠ هـ ثورة العلويين بعد أخرى ؛ وفي القرن الرابع الهجري بدأت فتن المغرب تستولي على مصر ، فوحّد ذلك بين أغراض العلويين السياسية وبين أغراض الشيعة .

وقد بلغت الفتنة في يوم عاشوراء سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م مبلغاً شديداً في العاصمة ، فنشب القتالُ بين الجند السنّيين من السودان والترك وبين الشيعة ؛ وكان الجنود يسألون من يجدونه : من خالك ؟ فإن لم يقل : معاوية ضربوه[٤] . وطاف أحد السودان المتهيجين بالطرقات ، وهو يصيح : معاوية خال على ؛

---

(٢) كتاب الولاة والقضاة للكندي طبعة Guest ، ليدن ص ١٩٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٤) يظهر أن هذه العبارة أصبحت العلامة التي يعرف بها السنّي ، ومن النوادر أن نفطويه (المتوفى عام ٣٢٣ هـ) حكي عن بعض الشيعة أنه قيل له : معاوية خالك ؟ فقال : لا أدري ، أهي نصرانية ، والأمر إليه (الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣١٣) .

تابعه العامة ، وأصبحت هذه هي صيحة أهل السنة بمصر حين يريدون قتال الشيعة . وقد حافظت الحكومة على النظام بقدر استطاعتها ؛ وفي عام ٣٥٣ هـ — ٩٦٤ م ضُرب أحد كبار الشيعة ، وحُبس حتى مات في السجن . وقام على قبره قتالٌ بين الجند و بين أصحابه .

ولما دخل جوهرٌ مصر وصارت الحكومة شيعية كانت العامة عند أقل إشارة لهم يصيحون صيحة السنة على الشيعة من نحو : معاوية خال على . ففي سنة ٣٦١ هـ — ٩٧٢ م قُبض على عجوز عمياء تنشد في الطريق ، وحُبست ؛ ففزع جماعة من الرعية ، نادوا بذكر الصحابة ، وصاحوا : « معاوية خال المؤمنين وخال علىّ ؛ فبعث جوهرٌ ونادى في الجامع العتيق : « أقلّوا القول ودعوا الفُضول ، فإننا حبسنا العجوز صيانة لها ، فلا ينطقن أحد إلا حلت به العقوبة الموجعة» ، ثم أطلقت العجوز[1] . بل يحكى أيضا أنه في عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م شغب جماعة من الصيارفة السنيين وصاحوا : معاوية خال على بن أبي طالب[2] ، هذا مع أن الصيارفة أحدأ العناصر السياسية .

على أن حكومة الفاطميين كانت تتوخّى جانب الحكمة في الجملة ، ولم تكن حكومة متعصّبة ؛ ولكنها جعلت أحسن المناصب في القضاء والإفتاء للشيعة وحدهم . وقد بلغ من تسامحها أنها لم تمنع العامة في عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م من الاحتفال بعيد اتخذه أهل السنّة ، بعد عيد الغدير عند الشيعة ، مضاهاةً للشيعة ونكايةً لهم ، وهو اليوم الذي دخل فيه رسول الله عليه السلام الغارَ هو

---

(١) كتاب انعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء للمقريزي طبعة القدسي ١٩٠٨ ص ٨٧ .

(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

وأبو بكر الصديق ؛ و بالغوا فى هذا اليوم فى السرور و إظهار الزينة ونصب القباب و إيقاد النيران[١] .

وقد شذ الخليفة الحاكم فى هذا أيضاً ؛ ففى عام ٣٩٣ هـ — ١٠٠٢ م أمر نائبُ دمشق من قِبَل الحاكم برجل مغربى ، فضُرب وطيف به على حمار ، ونودى عليه : هذا جزاء مَن أحبَّ أبا بكر وعمر ؛ ثم أمر به فضربت عنقه[٢] . وفى عام ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م بلغ تعصُّب الحاكم المذهب أقصى حد ، فكان من الأشياء الكثيرة التى أمر بها أن يُكتب على الجوامع والمساجد والحيطان والدروب لعنُ أبى بكر وعثمان ومعاوية وغيرهم من الصحابة ، وكذلك سائر خلفاء بنى العباس ؛ وعَظُم ذلك على أهل السنّة[٣] . وفى عام ٣٩٦ هـ — ١٠٠٥ م أمر بمنع الناس فى يوم عاشوراء من الخروج للنوح والبكاء على الحسين فى الشوارع ، لأن العامة كانوا يمدون أيديهم إلى أمتعة الباعة ؛ فرفعوا ذلك إلى الحاكم ، فأمر بمنعهم من المرور فى الشوارع ، وأن يختص النوح والنشيد بالصحراء[٤] . وفى عام ٣٩٩ هـ — ١٠٠٩ م عاد الحاكم إلى الأمر بألا يُسبّ أحدٌ من السلف الذين كان أمر بسبهم ، وهذه هى عادته من الأمر بالشىء ثم الأمر بتركه[٥] .

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٢) أبو المحاسن طبعة كلفوريا ص ٩١ (عام ٣٩٣ هـ) ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٢٦ . ويقول ابن الأثير إنه أخرج من المدينة فقط ، ولم يقتل .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٦ أ ؛ وفى هذه السنة نفسها وصلت قافلة الحج فأراد العامة حملهم على سب السلف ، فأبوا ، فحل بهم مكروه شديد (خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٤٢) .

(٤) الخطط المقريزى ج ٢ ص ٤٣٢ ، وملحق اتعاظ أخبار الولاة والقضاة السكندى ص ٦٠٠ .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١١٩ أ .

على أن مذهب الشيعة لم يستطع أن يجذب إليه الناس ؛ فيحدثنا المقدسى أنه لم يجد الشيعة إلا فى أعلى القصبة ، وكذلك أهل صندفا[١] . وكانت فى المغرب على الحدود بين الجزائر وتونس توجد أيضاً مدينة نفطة ، وجميع أهلها شيعة ؛ وكانت تسمى الكوفة الصغرى[٢] . على أنه بعد التدهور السياسى للفاطميين سرعان ما رجعت موجة هذا التيار الشيعى ، حتى لم يبق له أثر .

وكانت بغداد هى العاصمة بمعنى الكلمة الحقيقى ؛ وآية ذلك أن جميع الحركات الروحية فى مملكة الإسلام كانت تتلاطم أمواجها فى بغداد ؛ وكان بها لجميع المذاهب أنصار . ولكن أكبر حزبين كانا بها فى القرن الرابع الهجرى هما الحزبان المتشدّدان فى التمسك بمذهبهما ، وهما الحنابلة والشيعة[٣] ؛ وكان أنصار الشيعة يسكنون بنوع خاص حول سوق الكرخ ، ولم يتعدّوا الجسر الكبير و يحتلّوا باب الطاق إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى[٤] . ولم يستطيعوا التعدى إلى القسم الغربى ، لأن الهاشميين كانوا يكوّنون عصبة قوية هناك ، ولا سيما حول باب البصرة ، وكانوا من أشد أعداء الشيعة[٥] . على أن ياقوتا وجد أن أهل محلة باب البصرة — بين كرخ بغداد والقبلة — كلهم سنّية حنابلة ، وأن عن يسار الكرخ وفى جنوبها سنّية . أما الكرخ فأهلها كلهم شيعة إمامية لا يوجد فيهم سنّى ألبتة[٦] ؛ و إلى جانب ما تقدم كان باب الشعير غربى شاطئ دجلة من

---

(١) المقدسى ص ٣٠٢ .

(٢) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية فى المغرب للبكرى طبعة الجزائر ١٨٥٧ ص ٧٥ .

(٣) المقدسى ص ١٢٦ . ويقول المقدسى (ص ٣٧) إن الحنابلة ينكرون النصب [يعنى التعصب على ، وهذا ما يجعل الشيعة يكرهونهم . المترجم]

(٤) [illegible] ص ٢٢١ .

أكبر مراكز أهل السنّة[١] . ورغم ما قام به المتوكل من تشديد فى اضطهاد الشيعة فى القرن الثالث الهجرى ، نلاحظ أن قوتهم كانت عظيمة حتى إن الخليفة المعتضد عزم فى عام ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م على لعن معاوية على المنابر ؛ وأمر بإنشاء كتاب فى ذلك وصلت إلينا صورتُه ، فخوفه الوزير من اضطراب العامة ، فقال المعتضد : إن اضطربت العامّةُ وضعتُ فيها السيف ؛ فقال له الوزير : فما تصنع بالطالبيين الذين هم فى كل ناحية يخرجون ويميل إليهم كثير من الناس لقرابتهم من الرسول ، وفى هذا الكتاب إطراؤهم ؛ وإذا سمع الناس كانوا إليهم أميَل[٢] ؟ ويذكر المؤرخون لأول مرة عام ٣١٣ هـ — ٩٢٥ م أن الشيعة البغداديين كانوا يجتمعون فى مسجد براثا ، فعلم الخليفة بأن قوما منهم يجتمعون فيه لسبّ الصحابة ؛ فأمر بكبسه فى يوم جمعة وقت الصلاة ، فوُجد فيه ثلاثون إنسانا يصلّون ؛ فقُبض عليهم وفُتّشوا ، فوجد معهم خواتم من طين أبيض عليها اسم الإمام ، كما كان يفعل دعاة الفاطميين مع من ينتسب إليهم . وقد استصدر الخليفة فتوى بهدم المسجد حتى سُوّى بالأرض ، وعفى رسمه ، ووُصل بالمقبرة التى تليه[٣] . وفى سنة ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م همّ على بن يَلْبَقْ ، وهو من القواد الترك ، مرة أخرى بأن يلعن معاوية وابنه يزيد على المنابر ؛ فاضطربت العامة ، وكان البربهارى رئيس الحنابلة يثير الفتن هو وأصحابه[٤] . وفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م نودى فى جانبى

---

(١) كتاب الوزراء ص ٤٨٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٦٤ — ٢٢٧٨ .

(٣) المنتظم ص ٢٩ ب ، ٦٧ ا وكان ببغداد طائفة من المكدّين يدّعون أنهم شيعة ويحملون السبح والألواح من الطين ، ويزعمون أنها من قبر الحسين بن على رضى الله عنهما فيبيعونها الشيعة . ولا تزال أطباق الطين تباع إلى اليوم ، يشتريها الشيعة ليضعوها أمامهم عند الصلاة لكى تقع عليها جباههم كلما سجدوا .

(٤) تجد هذا مفصلا عن مسكويه ج ٥ ص ٤١٣ ، ومختصراً عند ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ ، وعند أبى المحاسن تابعة ابن ج ٢ ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

بغداد بألاّ يجتمع من الحنابلة نفسان فى موضع واحد ، وكان ذلك لكثرة تشرطهم على الناس و إيقاعهم الفتن المتّصلة ؛ وخرج توقيع الخليفة الراضى بكتاب بيّن فيه أخطاء الحنابلة وتوعّدهم بالعقاب ، وقد وصلت إلينا صورة هذا الكتاب[1] ، فهو يتّهمهم بالطعن على خيار الأمة و بنسبة شيعة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكفر ، وإرصادهم بالمكاره فى الطرقات والمحالّ و إنكار زيارة قبور الأئمة صلوات الله عليهم ، والتشنيع على زُوّارها بالابتداع ، وأن الحنابلة مع إنكارهم ذلك ، يتلفقون و يجتمعون لقصد رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله صلى الله عليه ، و يأمرون بزيارة قبره والخشوع لدى تربته ، وفى آخر الكتاب يقسم أمير المؤمنين بالله لئن لم ينصرف الحنابلة عن مذموم مذهبهم ليوسعنّهم ضرباً وتشريداً وليستعملنّ السيفَ فى رقابهم والنار فى محالّهم ومنازلهم[2] .

ثم أن بحكم أمر بإعادة بناء مسجد براثا فى عام ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م وبتوسيعه ليكون مسجداً لأهل السنّة ، وكتب فى صدره اسم الراضى بالله ؛ ثم جاء المتّقى بالله فأمر بنصب منبر فيه ، كان فى مدينة المنصور معطّلاً مخبوّا فى خزانة المسجد عليه اسم هارون الرشيد ؛ ونُصب هذا المنبر فى قبلة المسجد ، وافتُتح هذا المسجد للصلاة فى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م[3] .

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٤٩٠ — ٤٩٢

(٢) وقد أصيب هذا الكتاب بما يشبه صبغة اعتقادية كلامية ، فذكر أبو الفداء فى تاريخه أنه قد جاء فيه توبيخ الحنابلة باعتقاد التشبيه : « وأنكم تزعمون أن صورة وجهكم الشبيهة على مثال رب العالمين وعينكم على هيئته وهكذا » — تاريخ أبى الفداء حوادث عام ٣٢٣ هـ ج ٢ ص ٣٠٠ ، ٣٠١ طبعة القاهرة .

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ١٦٨ ؛ وابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٨ ؛ ومسكويه ج ٦ ص ٢٠٢ وما بعدها فى النزاع بين المسجد والجيران فيه من عهد زيادة فى البيان .

وكان الحمدانيون أول أسرة شيعية تدخلت فى أمور بغداد ، وكان هـذا التدخل مثيراً للعجب ؛ ذلك أن ابن حمدان على شدة تشيعه وميله إلى علىّ وأهل بيته سمى فى البيعة لابن المعتز على انحرافه عن علىّ وَغُلُوّه فى النّصب[١] . ولـكن الأحوال تغيرت لمـا استولى الديلم على بغداد ، وكانوا قد دخلوا فى الإسلام حديثاً على يد أحد العلويين ؛ فلم يكد معز الدولة يدخل بغداد حتى قبض على الخليفة المستكفى وأنزله عن عرشه على صورة مهينة . وكان من الأسباب الظاهرة فى ذلك أن المستكفى كان قد قبض على الشافعى رئيس الشيعة[٢] . وفى سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م قامت فتنة بين العامة ببغداد ، وتعطلت الجمعة بمساجد أهل السنة لاتصال الفتن ، ولم تُقَمْ الجمعة إلا فى مسجد براثا الشيعى[٣] وفى عام ٣٥١ هـ كتب معز الدولة على المساجد لَعْنَ الصحابة ، فمحاه الناس أثناء الليل[٤] . وفى العام التالى أمر الناس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء ، وهو أكبر عيد للشيعة ، وأن يُظهروا الحزن . فأُغلقت الأسواق وعطل البيع والشراء ، ولم يذبح القصابون ، ولا طبخ الهراسون ، ولا تُرك الناس أن يستقوا المـاء ، ونصبت القبابُ فى الأسواق ، وعُلّقت عليها المسوح ، وخَرَجَتْ النساء مُنَشّرات الشعور مسوّدات الوجوه ، قد شققن ثيابهن يَدُرْن فى البلد وينُحْن ويَلْطُمْن وجوههن على الحسين

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢٣ .

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ٢٨٩ ؛ وأبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٥١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٧ .

(٤) انظر ما تقدم .

(رضى الله عنه) . وفى هـذا اليوم كان يزار قبر الحسن بكربلاء[١] ويصف البيرونى ما جرى عليه بنو أمية من إظهار الفرح فى يوم عاشوراء وما كان يظهره الشيعة من حزن ، ثم يقول : « ولذلك كره فيه العامةُ تجديد الأوانى والثياب »[٢] . وفى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة فى هذا العام جاء عيد الغدير (غدير خمّ) ، فاحتفل به الشيعة ببغداد ، وزعموا أنه اليوم الذى عهد فيه الرسول عليه السلام إلى علىّ بن أبى طالب واستخلفه[٣] ، وفيه أظهروا السرور بأمر معزّ الدولة ، على خلاف صنيعهم فى يوم عاشوراء ، فنصبوا القباب وعلّقوا الثياب ، وأظهروا الزينة . وفى ليلته أشعلت النيران بمجلس الشرطة ، وضربت الدبادب والبوقات ؛ وفى صبيحته نحروا جملاً وبكّروا إلى مقابر قريش[٤] . أما بنو أمية فكانوا قد اتخذوا يوم عاشوراء من قبل يوم سرور ، « فلبسوا فيه ما تجدد وتزينوا واكتحلوا وعيدوا وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلاوات والطيبات ، وجرى الرسم فى العامة على ذلك أيام ملكهم ، وبقى فيهم بعد زواله عنهم » . وقد حاول أهل الحديث أن يظهروا فضل يوم عاشوراء فذكروا ما روى عن النبى عليه السلام من الحضّ على

---

(١) المنتظم ص ٩٣ ب ؛ وكتاب الوزراء ص ٣٧١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٣ ، ٤٠٧ ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٣٦٤ . ولا نجد قط ذكراً لروايات ألفت لتبجيل الشهداء كالتى نراها اليوم عادة . على أنه من العبارات التى نشبه أن يكون أصلها من قصة تمثيلية قول السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنها « كنت أحسن من السماء وأعذب من الماء » (رسائل الجواريزى طبعة القسطنطينية ١٢٩٧ ص ٣٧) ؛ [وليس فى هذا دليل مقبول . المترجم]

(٢) الآثار الباقية للبيرونى طبعة أوروبا ص ٣٢٩ .

(٣) المنتظم ص ٩٢ ب ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٢ ؛ وكتاب الوزراء ص ٣٧١ ؛ وقد أخطأ أبو المحاسن (٢ ص ٣٢٠) فجعله [illegible]

نعل الخير فيه[١] . وكانوا يزعمون أن « الاكتحال فيه مانع من الرمد فى تلك السنة »[٢] . ولذلك يقول المقتى (المتوفى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م) مشدداً فيمن يفرح بيوم عاشوراء : « من ترك السعى فى حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة . ومن كان يومُ عاشوراء يومَ مصيبته وحزنه وبكائه بجعل الله عز وجل يومَ القيامة فرحَه وسرورَه ... ومن سمى يوم عاشوراء يوم بركة وادّخر بمنزله شيئا لم يُبارَك له فيما ادّخر ، وحُشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد لعنهم الله إلى أسفل درك من النار »[٣] . ولما زالت الدولة الفاطمية وجاء ملوك بنى أيوب اتخذوا يوم عاشوراء ، بعد أن كان يومَ حزن ، يومَ سرور ، جَرْيًا على عادة أهل الشام[٤] . ثم إن أهل السنّة أرادوا أن يعملوا لأنفسهم ما يكون بإزاء يوم عاشوراء ، فجعلوا بعده بثمانية أيام يوما نسبوه إلى مقتل مُصْعَب بن الزبير ، وزاروا قبره فى مسكن ، كما يُزار قبرُ الحسين بكربلاء[٥] . وكذلك عملوا بإزاء يوم الغدير بعده بثمانية أيام يوما ادعوا أنه اليوم الذى دخل فيه النبى عليه السلام وأبو بكر (رضى الله عنه) فى الغار ، وعملوا فى هذا اليوم ما يعمله الشيعة فى يوم الغدير . وكان أول ما عمل أهل السنة ذلك فى يوم الجمعة لأربع بقين من ذى الحجة عام ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م[٦] . وفى هذه الأعياد لم يكن الأمر يخلو من شغب وفتن بين الفريقين ، حتى كان الحكام الأقوياء يمنعون من

---

(١) الآثار الباقية للبيرونى ص ٣٢٩ .

(٢) عجائب المخلوقات للقزوينى ، طبعة أوروبا عام ١٨٤٩ ص ٦٨ .

(٣) كتاب العلل للمقسى مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ٩٩ ب .

(٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٩٠ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٢١ ؛ وكذلك عرف ياقوت بهذه الأماكن .

(٦) المنتظم ص ١٤٣ ا — ١٤٤ ب ؛ وكتاب الوزراء ص ٣٢١ .

عداها أحياناً[١] . وقد حدث مرة فى فتنة بين أهل السنة والشيعة أن الشيعة صاحوا : حاكم يا منصور ، إشارة إلى العدو المقيم بالقاهرة ؛ وقد بلغ الخليفة ذلك ، فأحفظه ، وأنفذ الحراس الذين على بابه لمعاونة أهل السنة ؛ فهزموا الشيعة ؛ ثم أجتمع الأشراف إلى دار الخليفة ، فسألوه العفو عما فعله السفهاء ، فعفا عنهم[٢] .

وفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م كان خطيب مسجد براثا ، وكان شيعيا ، يذكر مذاهب فاحشة من مذاهب الشيعة و يغلو فى علىّ ؛ فأمر الخليفة بالقبض عليه ، وعيّن محله خطيباً آخر ؛ فلما صعد المنبر دقّه بقفب سيفه على ما جرت به العادة ، والشيعة ينكرون هذا ، وقصر فى الخطبة عما كان يفعله مَن تقدمه فى ذكر على ابن أبى طالب ، وقال : اللهم اغفر للسلفين ، ومن زعم أن علياً مولاه ، فرماه العامّةُ حينئذ بالآجُرّ ، فوافاه كالمطر ، وخُلِع كمتفه ، وكُسِر أنفُه ، وأدمَى وجهُه ؛ وعرف الخليفة ذلك ، فغاظه وأحفظه ؛ وكتب فى الشيعة كتاباً شديداً للوزير ؛ وفى آخر الأمر اجتمع قوم من مشايخ أهل الكرخ ، وتوجّهوا مع الشريف المرتضى إلى دار الخلافة ، فأحالوا ما جرى على سفهاء الأحداث ، وسألوا الصفح عن هذه الجناية ، وطلبوا إقامة خطيب عدلت له نسخةٌ يعتمدها فيما يخطب ، وتجتنب ما يُحفِظ الشيعة[٣] . ومما كان له شأن فى توارث الشيعة المفاجئة فى القرن الرابع الهجرى أن مشهديهم الكبيرين المقدسين عندهم كانا بالعراق . على أن موضع قبر علىّ كان موضع شك ؛ وقد بيّن المسعودى ذلك فى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م ، حيث يقول إنه قد تُنوزع فى موضع القبر ؛ فذهب قوم إلى أنه دُفن

---

(١) فعل ذلك أبو الحسن المعلم عام ٣٨٢ هـ (المنتظم ص ١٣٤ أ) وعميد الجيوش عام ٣٩٢ هـ ، ٤٠٦٠ هـ (كتاب الوزراء ص ٤٨٢ — ٤٨٣ ، والمنتظم ص ١٤٧ ب ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ١٨٤) .

(٢) المنتظم ص ١٥٢ ب .

(٣) نفس المصدر ص ١٧٨ أ — ١٧٩ أ .

فى مسجد الكوفة[١] ؛ وقال آخرون إنه دفن فى القصر بالكوفة ؛ وذهب جماعة إلى أنه حُمل إلى المدينة فدُفن عند قبر فاطمة ؛ وقال قوم إنه حُمِلَ فى تابوت على جمل وإن الجمل تاه ووقع فى بلاد طيئ[٢] ؛ ثم يقال إن أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان (المتوفى عام ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م) شَهَرَ مكاناً بمشهد على ، كان يقال إنه قبر على بن أبى طالب ؛ وذلك بأن جعل عليه حصناً منيعا ، وابتنى على القبر قُبَّة عظيمة مربعة الأركان لها باب من كل جانب ، وسترها بفاخر الستور ، وفرشها بثمين الحصر السامانية[٣] . ولما مرض الوزير أبو محمد بن مهلان واشتد عليه المرض نذر ، إن عُوفى ، بناء سورٍ على مشهد أمير المؤمنين علىّ ؛ فعوفى ، فأمر ببناء سور عليه عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م[٤] . وأول من دُفن فى هذا المشهد من العظماء ، فيما أعلم ، رجلٌ من أهل البصرة عام ٣٤٢ هـ — ٩٥٣ م[٥] . وأول من دفن فيه من الأمراء عضدُ الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) ، فحُمِل إليه بعد أن كان قد دُفن بدار الملك ببغداد[٦] . وعضد الدولة هذا هو الذى أمر بإعادة بناء مشهد الحسين بن على[٧] ، بعد أن كان الخليفة المتوكل قد أمر فى عام ٢٣٦ هـ — ٨٥٠ م بهدم قبره وهدم ما حوله من المنازل وبأن يُحرَث ويُبذَر ويُسقَى[٨] . وكان يزعم البعض أن رأس الحسين ، عليه السلام ،

---

(١) انظر أيضاً ابن حوقل ص ١٦٣ .

(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ ، ج ٥ ص ٦٨ .

(٣) ابن حوقل ص ١٦٣ .

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٤ .

(٥) نفس المصدر ج ٨ ص ٣٨٠ .

(٦) نفس المصدر ج ٩ ص ١٣ .

(٧) وكذلك بنى قبر فاطمة بقُمّ (رسائل المفيد ص ٢٠٠ ؟) .

(٨) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٤٠٢ ، ولابن سعد فى المتوكل شعر قاله ، لما أمر بهدم القبر :

الشهداء ، يوجد فى رباط صغير قريبا من مدينة مرو ، وذلك فى القرن الرابع الهجرى[١] . ويقول المقريزى إن رأس الحسين حُمل من عسقلان إلى القاهرة ووصل إليها فى عام ٥٤٨ هـ — ١١٥٣ م[٢] . ويرى ابن تيمية أن هذا باطل باتفاق أهل العلم ، وأن أحداً من أهل العلم لم يقل إن رأس الحسين كان بعسقلان[٣] ؛ وفى عام ٣٩٩ هـ — ١٠٠٩ م توفى أبو العباس الكاتب الوزير بالرىّ ، وكان قد وصى قبل موته أن يُدفن فى مشهد الحسين ؛ فكتب ابنه إلى العلويين أن يبيعوه تربة بخمسمائة دينار ، فقال الشريف إذ ذاك : هذا رجل التجأ إلى جوار جدّى ، ولا آخذ لتربته ثمناً ؛ وأعطيت الرجل تربةً من غير أن يدفع شيئا[٤] . ولم يصل إلينا وصف لداخل مشهد الحسين بكربلاء قبل وصف ابن بطوطة له فى القرن الثامن الهجرى ؛ أما قبل ذلك فيُذكر أن القبر كان يُغطّى بقماش تاريز ، وحوله شموع مضاءة[٥] . ثم إن محمد الدولة بن بويه بنى على قبر على الرضا بطوس حصناً ومسجداً لم يكن بخراسان أحسن منه[٦] .

= ناقة إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما
أسفو على أن لم يكونوا شاركوا ... فى قتله ، فتتبعوه رميما

(تاريخ أبى الفداء تحت عام ٣٠٣ هـ)

(١) المقدسى ص ٤٦ ، ٣٢٣ .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٢٧ .

(٣) نصرة شريتر .(Schreiner. ZDMG., 53, S. 81)

(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٦٨ .

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٩ ؛ وابن تغرى بردى طبعة كليفورنيا ص ١٢٣ .

(٦) المقدسى ص ٣٢٣ .

تعليقات[١]

من أراد كلاماً موجزاً عن الشيعة فليرجع إلى كتاب : Johannes Hauri Islam, p. 89 ff. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب جولدتزيهر : Goldziher, Vorlesungen über den Islam ؛ وهذا الكتاب مترجم إلى الإنجليزية بعنوان : Muhammed and Islam وإلى الفرنسية بعنوان : le Dogme et la loi de l'Islam. وإلى العربية بمصر حديثاً .

يقول جولدتزيهر فى صفحة ٢٢٢ من الترجمة الإنجليزية : إن من الحقائق الأولية أن مسألة الخلافة قسمت المسلمين إلى فرقتين . أهل السنة ، والشيعة ؛ وكان لأهل البيت فريقٌ يعترف سراً بحقوقهم ، حتى فى عهد الخلفاء الثلاثة الأولين ؛ ولكن هذا الفريق لم يكن يجاهر بالخصام . وبعد عصر هؤلاء الخلفاء صار يعارض كل من حكم من غير أبناء علىّ ؛ وكانت هذه المعارضة موجهة أول الأمر إلى الأمويين ، ثم إلى من بعدهم ممن لم تتوافر فيهم الشروط التى يوجبها الشيعة فى الإمام ؛ وهم حينما يبينون وجوه النقص فى هؤلاء الحكام يقررون الحقوق الشرعية لأبناء النبى عليه السلام ممثلة فى ذرية علىّ وفاطمة ؛ وكما أنهم اتهموا الخلفاء الثلاثة الأولين سرًّا بأنهم مغتصبون ظالمون ، فكذلك عارضوا النظام السياسى فى الدولة الإسلامية سراً وجهراً فى كل العصور .

وقد أدّت طبيعةُ هذه المعارضة إلى ظهورها فى صورة تغلب عليها الصبغة الدينية . وعلى حين أن الشيعة يرفضون تنصيب الخليفة بالطرق العادية الإنسانية ،

---

(١) هذه التعليقات الملحقة بالفصول هى تلخيص لتعليقات المرحوم العلّامة خدابخش الهندى على [illegible] لتحبير هذا [illegible]

فإنهم يقولون إن الرئيس الشرعي الوحيد من الناحية الروحية والزمنية هو الإمام المعصوم الذي يعيّن تعييناً ، ويكون من أبناء النبي عليه السلام .

وفي صفحة ٢٣٠ تكلم جولدتزيهر عن الفرق الأساسي بين الخليفة عند أهل السنة والإمام عند الشيعة

أوجب أهلُ السنّة تنصيب خليفة مهمته تنفيذ أحكام الشريعة وفروضها ، وحمايةُ حدود بلاد الإسلام والدفاعُ عنها ، والإشرافُ على تعبئة الجيوش ، وأخذُ ما فُرض على المسلمين في أموالهم ، وتقسيم غنائم الحرب بينهم بالعدل ، وغير ذلك من المهام ؛ وبالاختصار فالخليفة هو ممثل السلطة القضائية والإدارية والحربية ، وهو مجرد خليفة لمن تقدمه ، ويختاره المسلمون بالطرق العادية (بالانتخاب أو بتعيين سلفه له) لسياستهم ؛ ولا يشترط فيه أن يكون أعلم المسلمين .

أما الإمام عند الشيعة فهو رئيس المسلمين ومعلمهم ، بفضل ما وهبه الله من الصفات ، وبحكم وراثته للنبي عليه السلام ؛ وهو يحكم ويعلّم متلقيا ذلك عن الله على نحو ما كان موسى يسمع كلام الله من الشجرة ؛ فكأنه يتلقى عن الله رسالة مستمرة ؛ وهو يجمع إلى هذه المزية صفات خاصة من طور فوق طور الإنسان . ويزعم الشيعة أن وراثة الإمامة تنقلت من آدم ، حتى انتهت إلى عبد المطلب جدّ النبي عليه السلام وجدّ عليّ رضي الله عنه ؛ ومن عبد المطلب انقسم النور قسمين ، أحدهما انتقل إلى عبد الله والد النبي ، والآخر إلى أخيه عبد المطلب والد علي ؛ ثم سار النور من علي إلى ذريته وهذا النور الذي في روح الإمام يجعله إمام عصره ، ويجعل له قوى روحانية تجاوز حدود القدرة الإنسانية ؛ وروح الإمام أنقى من أرواح سائر الناس ، لأنه مبرأ من بواعث الشر متحلّ بالفضائل

الإلهية وهذه هي صفات الإمام عند المعتدلين من الشيعة ؛ أما الغلاة منهم فهم يرضون الإمام إلى الأفق الإلهي .

وفي ص ٢٥٤ وما بعدها ينبه جولدتزيهر على أخطاء شائعة فيما يتعلق بالشيعة .

١ — يذهب البعض إلى أن الفرق بين مذهب أهل السنة ومذهب الشيعة أن الأولين يعترفون بأن السنّة أصل من أصول العقائد والأحكام الدينية بعد القرآن ، وأن الشيعة يرفضون السنّة . يقول جولدتزيهر : إن هذا خطأ جوهري في فهم مذهب الشيعة ؛ ومنشؤه اختلاف التسمية بين الفريقين ؛ فليس بين الشيعة من ينكر السنّة ؛ بل هم يقرون بالسنة التي حَمَلَها أهلُ البيت ، ويذهبون إلى أن خصوم الشيعة يعتمدون في أخذ السنة على الصحابة الغاصبين . ثم أحاديث مشتركة بين الشيعة وأهل السنة لا تختلف إلا في السند ؛ والشيعةُ يقبلون الأحاديث التي رواها أهل السنّة ، والتي تؤيد الشيعة أو على الأقل لا تعارض مذهبهم ؛ ومن أمثلة ذلك أن من الشيعة المتشدّدين من يعتمدون على أحاديث البخاري ومسلم ، ويقرؤونها أيامَ الجمَع ؛ ونستطيع معرفة شأن السنّة عندهم من أن كثيراً من قول عليّ في القرآن والسنّة يؤخذ مما رواه الشيعة عن علي ؛ فاحترام السنة من مستلزمات مذهب أهل السنة والشيعة على السواء ؛ ومما يدل أيضاً على اعتداد الشيعة بالسنة النبوية أنهم كتبوا الكثير في السنّة وما يتعلق بها ، وأنهم وضعوا أحاديث كثيرة وأذاعوها ؛ فالشيعة لا يعارضون أهل السنّة بصفتهم منكرين للسنة ، بل بصفة أنهم أولياء أهل البيت أو الخاصة الذين يمتازون على العامة الغارقين في بحار العمى والضلال .

٢ — ومن الآراء الخاطئة القول بأن بعض الشيعة يرجع إلى مذاهب الفرس وتأثيرها في الإسلام ؛ وهذا ناشئ عن خطأ [illegible]

(هو Wellhausen, Die Religios-politischen Oppositionsparteien im Alten Islam) وذلك أن حركة التشيع نشأت على تربة عربية خالصة ، ولم تنتشر بين غير العرب إلا بعد ظهور المختار . هذا إلى أن أصول النظرية الإمامية بما تتضمنه من النظر إلى الدولة نظرة دينية لا دنيوية ، ومن القول بالمهدى ونحوه يمكن أن نرده إلى الأثر اليهودى والمسيحى ، بل إن ما ذهب إليه الشيعة العالية من تأليه علىّ كان أول من أتى به عبدُ الله بن سبأ قبل تأثير المذاهب الآرية ؛ وكذلك التجسيم عند الشيعة ، يرجع بعضه إلى أصل عربى .

وقد ذهب إلى قول الشيعة أهل النظر العقلى بين العرب ، وكذلك الفرس ، وقد رحّب الفرسُ بمعارضة الشيعة لأهل السنة وأخذوا بمذهب الشيعة ؛ ثم تأثر هذا المذهب فيما بعد بما هو موروث عند الفرس من تأليه الملوك . ولكن الأصول الأولى للتشيع لا ترجع إلى أثر أجنبى ، بل هى عربية فى صميمها .

٣ — أن الشيعة هم أصحاب الفكر الحرّ ، خلافاً لأهل السنة الجامدين ، وهو ما ذهب إليه أخيراً البارون كرادفو . وهذا الرأى لا يقبله من له علم بمذهب الشيعة ، فمن المؤكد أن تقديس علىّ هو محور الاعتقادات الدينية عند الشيعة ؛ وكل ما عدا هذا فهو ثانوى المرتبة ، وأن الشيعة بتقضيلهم الإمامَ المعصوم من غير اعتماد على قوة الرأى العام قد نبذوا ما نراه فى مذهب أهل السنّة من عناصر التفكير الحر . وعلى هذا فإن خضوع الشيعة لمذهب يتلقونه عن سلطة معصومة لا تقبل معارضة هو ما تميز به الحياة الدينية عندهم .

أما علاقة الشيعة بالمعتزلة فيقول جولدتزيهر إن الصلة بينهم أمر لا سبيل إلى الشك فيه ، لما ذهب إليه أحد علماء الشيعة من أن القول بالإمام الغائب جزء من قول أصحاب التوحيد والعدل ، وهم المعتزلة . ومن الشيعة فرعُ الزيدية ، وهم أكثر من غيرهم ميلا إلى مذهب المعتزلة .

وقد أثّر مذهبُ المعتزلة فى التشيُّع إلى عصرنا ؛ ومن الخطأ قولُ من قال : إن مذهب المعتزلة لم يلعب دوراً كبيراً فى الدين والأدب بعد انتصار الأشاعرة . ومما يثبت بطلان هذا الرأى ما انتهى إلينا من كتب كثيرة للشيعة يتجلى فيها تأثير المعتزلة ؛ فمن ذلك أن الشيعة يقسمون كتبهم إلى باب العدل والتوحيد ؛ بل نجد من كبار المعتزلة كالنظّام من قرّر من قبل أن الحجة فى قول الإمام المعصوم ؛ وقول الشيعة بضرورة وجود إمام معصوم له اتصال بما اختص به المعتزلة من القول بوجوب هداية أساسها الحكمة والعدل الإلهيّان ؛ فلا بد عند بعض المعتزلة من أن يجعل الله لكل عصر إماماً معصوماً .

وقد نقل جولدتزيهر فى آخر الفصل الخاص بالزهد والتصوف من كتابه المتقدم ما ذكره الغزالى فى فيصل التفرقة من أن أساس الإيمان الاعتقاد بالأصول ؛ أما الخلاف فى فروع العقائد والعبادات ، ولو كان فيه إنكار الخلافة التى يقول بها أهل السنة ، كما فعل الشيعة ، فلا يكفى لاعتبار صاحبه زنديقاً . وقد أوصى الغزالى بإمساك اللسان عن تمزيق أعراض أهل القبلة .